هذا وطني
MY HOME

تحدثنا في حلقات سابقة عن الكثير من الشواخص والدلالات الأثرية العراقية المهمة، التي أصبحت مثاراً للإعجاب فقط من قبل دول العالم على اختلاف الحقب الزمنية، بل إن بعض تلك الدول لم تكتف بإشارات الإعجاب ومبررات التباهي، بل ذهبت إلى تقليد تلك الشواخص سواء كانت ذات تقنيات عمرانية عالية، أم مغريات دينية وتاريخية ذات أهمية حضارية.
العراق وعبر تاريخه وارثه الحضاري الطويل كان وما يزال مركز استقطاب لتلك الحالات، لما يمتلكه من شواهد تاريخية لها قيمتها الفنية والحضارية المتميزة، اقلها إبداعا قال ويقول للمدونات التاريخية على اختلاف حقبها الزمنية "باقٍ وأعمارُ الطغاة قصارُ"، وملوية سامراء وجامعها الكبير ليست الأولى ولا الأخيرة، التي حاولت روح التقليد أن تنقل روعة ودهشة ودقة عُمرانها لهذه الدولة أو تلك.

□ تحقيق / يوسف المحمّداوي.. تصوير / محمود رؤوف

مفخرة المعتصم ومغرية بن طولون

ملوية سامراء فتنة معمارية شوّهتها معاول الإهمال

صورة للملوية مع مأذنة بن طولون

فنار الدوحة

على سبيل المثال لا الحصر في دولة قطر افتتح مركز قطر الثقافي الإسلامي، الذي يشتهر بمنارته الحلزونية التي تشبه ملوية جامع سامراء وسمي بفنار الدوحة، والمركز عبارة عن وقف خيري تديره وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في إمارة قطر من أجل تقديم خدمات تعليمية وثقافية مجانية لغير المسلمين.
والذي تابع الحفل الفني الكبير في افتتاح دورة الألعاب العربية، التي أقيمت في قطر لا بد وان لفت نظره شكل مرجل دورة الألعاب العربية، الذي كان مستوحى من شكل ملوية سامراء التي تم بناؤها قبل فنار الدوحة بأكثر من ١٢٠٠ سنة، وما يبعث الألم أن الدعاية الإعلامية للدورة كانت تشير وتهلهل لملوية فنار الدوحة ولم تذكر ملوية سامراء لا من قريب ولا من بعيد.

منتجع في اليابان

ومن النماذج الأخرى التي حاولت أن تتشبه مدنها وتتباهى برائعة المهندس الكلداني دليل يعقوب، بنيت على غرار ملويته في منتجع (مانزيمو اوكين بارك) في اليابان، وهذا الموقع المطل على المحيط الهادئ كمنتجع سياحي عالمي منفرد بسحر طبيعته الخلابة، ليصبح أكثر جذبا للسائحين حين بنيت فيه ملوية صغيرة مستوحاة من ملوية سامراء.
وعشقا وتقليدا لروعة ودقة عمرانها، أمر حاكم مصر أحمد بن طولون بتشييد مئذنة جامعه المعروف في القاهرة.
تشير المصادر التاريخية إلى انه لما انتقل المعتصم العباسي من بغداد إلى سامراء، راح يفتش عن موضع لبناء عاصمته الجديدة، فلما كان يتحرى المواضع وصل إلى موضع يبعد عن بغداد ١١٨ كم، فوجد فيه ديرا للمسيحيين، فأقام فيه ثلاثة أيام ليتأكد من طبيعة الجو والمكان، فاستحسنه واستطاب، واشترى أرض الدير بأربعة آلاف دينار، وشرع في سنة (٢٢١ هـ) بتخطيط مدينته التي سميت (سُرّ مَنْ رَأى) يوم كانت المدينة عامرة ومزدهرة، ومنها نَحتتْ (سامراء)، وهناك من يقول بناها سام بن نوح فنسبت إليه، ورأي آخر يقول إن اسمها مشتق من اسم مستوطنة آشورية أو بابلية قديمة تعرف باسم سومروم أو سورمارتا، لكن انستاس الكرملي يقول إن الاسم موجود قبل مجيء المعتصم وقد ذكره المؤرخ الروماني اميانوس مرسيلنيوس، المهم أن سامراء قام ببنائها الخليفة العباسي المعتصم بالله سنة ٢٢١ هـ.

الضحك بمرارة!

أول ما بني فيها هو قصر الخليفة الذي سمي بدار العامة، ضحكتُ بمرارة وأنا اكتب هذا الاسم وحاشا إن كانت ضحكتي استخفافا بخليفة عربي خط له من المناقب والمآثر عسكريا وعمرانيا الكثير في ذاكرة التاريخ، ولكن مبررات ضحكتي كانت بسبب اندثار قصره الذي لم يتبقَ منه شيء، واسم دار العامة يتوافق مع قصور الشعب التي بناها المقبور صدام له، وبعد التغيير تحولت من قصور الشعب الى قصور النخب، فلا دار العامة المعتصمية ولا الأخيرة الصدامية دخلها الشعب ساكنا، وهذا بالحقيقة ما دعاني للضحك المر على مأساة علاقة بين المواطن العراقي المبتلى والسلطان الجائر المتحذلق.

المدى على اسوار بن طولون

مدينة سامراء أخذت قدسيتها منذ أن ضمت تربتها الجسدين الطاهرين للإمامين علي الهادي وابنه الحسن العسكري (عليهما السلام). وأصل الحضرة الشريفة هي دار كان قد اشتراها الهادي من المهندس الكلداني دليل بن يعقوب فأصبحت قبراً له ولولده العسكري (ع).

عبقرية دليل الكلداني

ودليل بن يعقوب هو مهندس عراقي، كلداني الأصل، كلفه الخليفة العباسي المتوكل بهندسة وبناء اكبر جامع في التاريخ الإسلامي، وأعلى وأدهش مئذنة في العالم في العصر العباسي، ولسحر عمرانها ورقي هندستها لا تزال محط اهتمام دارسي ومهندسي العلم العمراني الحديث في العديد من جامعات العالم.
الملوية هي أشهر ما تشتهر به المدينة من معالم ما زالت حتى يومنا هذا تستهوي الملايين من عشاق السياحة والآثار والسفرات وما زالت العلاقة المميزة والإشارة البلاغية لسامراء. والملوية هي مئذنة في جامع أريد لها الارتفاع حتى يصل صوت المؤذن إلى رقعة أوسع وقد عرف المكان كله باسم (المسجد الجامع) الذي بني في عهد الخليفة المتوكل بين عامي ٢٣٤ – ٢٣٧ هجرية، على أرض قدرت مساحتها بـ ٣٧٩٢٠ مترا مربعا، بحيث يتسع إلى مئة ألف مصل، وبذلك يعد اكبر جامع أثري في العالم.

كأس فرعون

ويضم سياج الجامع المرتفع إلى ١٠,٥م ، واحدا وعشرين بابا، وينهض سقفه على ٤٨٨ دعامة، ولهذا البناء الفخم ٤٠ برجاً وتتوسط صحنه (نافورة لا ينقطع ماؤها)، وكان حوض هذه النافورة عظيم الحجم حتى سموه (كاس فرعون)، وهي تتوسط الجامع وصنعت من المرمر ويبلغ محيط دائرتها (٢٣) ذراعا، وارتفاع الحوض (٧) اذرع، أما الماء فيأتيها من كهريز، والكهاريز أنابيب استخدمها الآشوريين في شق القنوات تحت الأرض في المشاريع الإروائية أيام مملكتهم وبالتحديد في زمن سنحاريب، وهذا ما جعل حفيده دليل يلجأ لنفس الطريقة، وذلك بمد النافورة بالماء بواسطة كهريز يربطها مع نهر في شرق مدينة سامراء يسمى بنهر الرصاصي، والكهريز بني من الطابوق الفرشي بشكل عقد مقوس يبلغ عرضه ٦٠ سم، وبارتفاع متر واحد، والكهريز مكون من عدة طبقات، فالداخل مبطن بالقير، والظهر غلف بمادة النوره، والأجزاء الباقية مكونة من الطين الحري، الرمل، الحصى الكبير، الحصى الناعم، التراب، وللأسف اندثرت أغلب تلك المعالم والتفاصيل، فيما ظلت المنارة أو المئذنة الملوية صامدة.

> يبلغ طول جامع ابن طولون ١٣٨ مترا، وعرضه ١١٨ مترا تقريبا، يحيط به من ثلاث جهات - البحرية والغربية والقبلية - ثلاث زيادات عرض كل منها ١٩ مترا

الهاون والسلم الحلزوني

تقوم الملوية على قاعدة مربعة طول ضلعها ٣٢م، ويتم الصعود الى قمتها بواسطة سلم أو مرقاة حلزونية، تدور في اتجاه معاكس لعقرب الساعة خمس دورات، وعرض السلم يبلغ ٢,٥م، وينتهي بغرفة اسطوانية ارتفاعها ٦م، وقطرها ٨٦م، تزينها حنيات متشابهة ومتساوية الحجم، والحنية الجنوبية تمثل نهاية السلم وهي أشبه بباب يؤدي إلى درج حلزوني ينتهي عند قمة المنارة التي يطلق عليها أهالي سامراء (الهاون)، ويبلغ ارتفاع الملوية ٥٢ م عن سطح الأرض، و٥٠م عن سطح القاعدة، ولا شبيه لهذا الطراز المعماري إلا منارة جامع أبي دلف على بعد ٥ كم شمالي مدينة سامراء، ولا تختلف في شيء عن الملوية سوى بالحجم إذ يبلغ ارتفاعها ١٩ م، وتدور أربع دورات باتجاه معاكس لعقرب الساعة، أما التفاصيل الباقية فتكاد تكون واحدة.

زها حديد والجينات المتوارثة

قام دليل الكلداني بجعل اتجاه المسجد نحو القبلة بأسلوب عمراني دقيق، ينم عن قدرة هندسية كبيرة تدل وبما لا يقبل الشك واللبس بان هذه الأرض ولادة وسباقة بكل شيء، وهذا ما يدفعني للقول أن إبداع وقدرة المعمارية العراقية الكبيرة زها حديد الذي يبهر العالم الآن لم يكن وليد خبرة دراسية ومعرفية فقط، فبالإضافة الى عبقريتها هناك لا بد من عبقرية لعوامل وراثية متأصلة من كروموسومات هندسية متجذرة فيها من أولئك الأجداد الأفذاذ.
الملوية التي نشاهدها الآن عبارة عن اثر مهجور من كل شيء، لم أجد حارسا يقف لحماية هذا الرمز الخالد، لم أرَ سوى قناني مياه فارغة رميت هنا وهناك، وعند الباب المغلق دائما وجدت ما يذكرني بالماضي الجميل وهي عبارة عن قطعة خشبية علقت عند باب الدخول، ثبتت عليها أسعار الدخول، للعراقيين بـ١٠٠٠دينار، وللعرب بـ١٠ دولارات، وللأجانب بـ٢٠ دولار، وهناك تخفيضات خاصة للطلبة، التفتُ لأبحث عن هؤلاء فلم أجد غير زميلي محمود وهو مشغول بالتقاط الصور، ومعه مرشدنا بهذه الرحلة الصديق الرائع علي السامرائي، الذي يعجز اللسان عن وصف ما فعله في سبيل إنجاح مهمتنا، تذكرت الملوية وأنا اصعد باتجاه قمتها بصحبة والدتي رحمها الله في بداية تسعينيات القرن الماضي، وأنا استر وجعي وحسرتي على وطن يتأرجح بين الموت والحياة، صرخ راديو السيارة وكأنه يخاطب الوطن بلساني "وين آخذك وين انهزم بيك ... بضلوعي لو بعيوني أخليك"، وصوت سياسي وهو يتندر يصيح بي "عوف الوطن عيني الله ينطيك".

بناء من أجل المنافسة

وقفت على باب مسجد ابن طولون في القاهرة، يرافقني في تلك الرحلة الشاعر المصري محمد آدم، حشود من الزائرين عند الباب، حرس لا يتعدون أصابع اليد، كشواني يطلب منك إما أن تخلع الحذاء أو تلبس فوقه ما يشبه الجزمة ولكنها ليست من المطاط، وإنما من النايلون ولبسها هو تقليد معمول به احتراما وتقديسا لأحد بيوت العبادة، الذي بناه بن طولون في القاهرة من اجل منافسة جامع وملوية العباسيين في سامراء.
ولقد بنى هذا المسجد مهندس قبطي، وقال له حينها ابن طولون :"أريد مسجداً إذا احترقت مصر بقي، وإذا غرقت بقي!"، وبالفعل حدث هذا عندما غزت الدولة العباسية مصر في أواخر عهد موسى هارون وساووا بالقطائع الأرض ولم يبق منها سوى هذا المسجد.

بن طولون يذبح المهندس

أحمد بن طولون (٨٣٥-٨٨٣ م) أمير مصر ومؤسس الدولة الطولونية في مصر والشام كان والده من أتراك القبجاق، وقام ببناء مسجده عام ٢٦٣ هجرية، حيث انفق عليه ١٢٠ ألف دينار، وطلب من مهندسه القبطي سعيد بن كاتب الفرغاني أن يكون بناء الجامع والمئذنة مشابها لبناء جامع وملوية سامراء، وسعيد مهندس قبطي نابغة ظهر اسمه في عهد الطولونيين، وغالبا ما يُنسَب إلى ناحية فرغان بمركز ديرب نجم بمحافظة الشرقية أو إلى مدينة الفراجون التي اندثرت ومحلها اليوم مدينة سيدي سالم بمحافظة كفر الشيخ.
انتهى أمر هذا المهندس القبطي حسب المصادر، على يد ابن طولون أن عرض عليه اعتناق الإسلام فأبى وتمسك بإيمانه المسيحي، فقطعتْ رأسه ومات شهيدا. ويذكر أبو المكارم في كتابه المنسوب خطأً لأبي صالح الأرمني "ذكر في دِلال الأعياد" أنه في اليوم السابع من كيهك قُطعت رأس ابن كاتب الفرغاني وجسده محفوظ في كنيسة القديس قلته".

أروقة القبلة

يبلغ طول جامع أبن طولون ١٣٨ مترا، وعرضه ١١٨ مترا تقريبا، يحيط به من ثلاث جهات – البحرية والغربية والقبلية – ثلاث زيادات عرض كل منها ١٩ مترا، ويكون الجامع مع هذه الزيادات مربعا، طول ضلعه ١٦٢ مترا، ويتكون على وجه التقريب من صحن مكشوف مربع طول ضلعه ٩٢ مترا، تتوسطه قبة محمولة على رقبة مثمنة ترتكز على قاعدة مربعة بها أربع فتحات معقودة ويتوسطها حوض للوضوء، ويوجد سلم داخل سمك حائطها البحرية يصعد منه إلى منسوب الرقبة. وتحيط بالصحن أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة ويشتمل على خمسة صفوف من العقود المدببة المحمولة على أكتاف مستطيلة القطاع استديرت أركانها على شكل أعمدة ملتصقة ويضم كل من الأروقة الثلاثة الأخرى صفين فقط.

من ينصف دليل؟

يغطي الأروقة الأربعة سقف من الخشب حديث الصنع وبأسفله الخشب القديم، كتبت عليه سور من القرآن الكريم بالخط الكوفي المكبر. وأغلب الظن أنها اقتبست سلمها الخارجي من المنارة الأصلية للجامع وبنيت على نمط مئذنة سامراء وهي بنيت مربعة من أسفل ثم أسطوانية وتنتهي مثمنة تعلوها قبة ويبلغ ارتفاعها أربعين مترا.
الناظر للجامع وهو يقارن بينه وبين عمارة ملوية سامراء وجامعها، يجد أن أوجه التشابه بينهما هي في الفترة الزمنية التي هي ثلاث سنوات، فضلا عن كون المهندسين هما مسيحيان أما التشابه قد يكون بالمسميات فقط أما ما تراه على الأرض فقد يختلف كليا، وإذا كانت حصة المهندس بن كاتب الفرغاني القتل على يد بن طولون، فان حصة مهندسنا دليل هي التهميش وغياب ذكره في اغلب الكتب التي تحدثت عن سامراء وملويتها، نتمنى أن ينصف هذا المهندس العظيم وتنصف ملويته ومدينته سر من رأى.. التي أصبحت اليوم ساء من رأى!!!

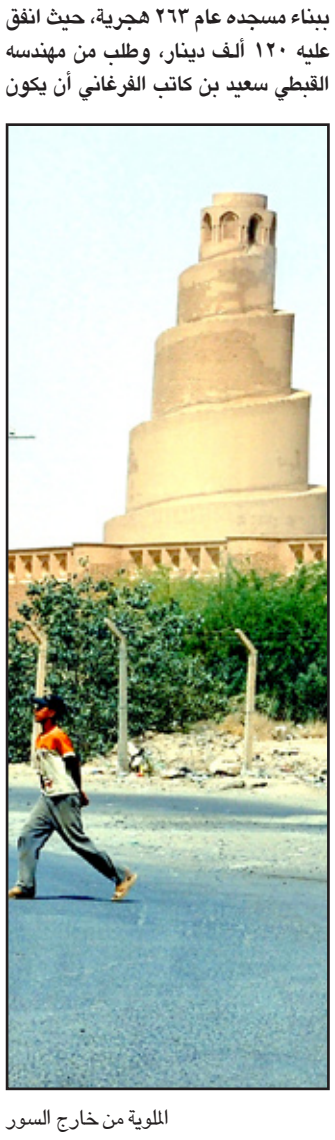

الملوية من خارج السور

> مدينة سامراء أخذت قدسيتها منذ أن ضمت تربتها الجسدين الطاهرين للإمامين علي الهادي وابنه الحسن العسكري (عليهما السلام)

جدار بن طولون في حي خليفة

■ *والى حكاية أخرى من هذا وطني*